ليس فارساً

بل قاطع طريق

■ الفروسية عند المسلمين نبل ونخوة وشهامة ، فضلاً عن الكرم والشجاعة والفداء .. وهي عند غيرهم غدرٌ وقطع للطريق ومجازر وحشية ، مجردة عن الأخلاق والإنسانية ..

بقلم : الدكتور محمد رجب البيومي

■■ ظهرت الأفلام السينمائية في أمريكا وإسبانيا تصور فروسيته المزعومة ، وهو قاطع طريق خائن خرَّب المدن الإسلامية ونكَّل بالمؤمنين ..) [م . ر] ■■

ترتكز الفروسية الأصيلة على صفات جليلة من المروءة والكرم والشجاعة ، فلا يجدر أن يتصف بها غير ذوي النفوس العالية من أولي الأريحية والشرف والفداء ، ومحاولة إلصاقها بكل فاتك يحمل حسامه ويضرب به أنّى قصد متخذاً ضروب الاحتيال والغدر والعقوق ، ومتخلصاً إلى مآربه الذاتية من سبل وبيئة دنسة حتى يذيع اسمه ويحتشد حوله فريق ممن ينخدعون بالبهارج الزائفة ، إن محاولة ذلك الإلصاق الشائن كذب صريح وبهتان عظيم .

وقد قرأنا كثيراً عن تاريخ السيد « الكمبيادور » صاحب الأعمال المخزِّبة في بلنسية وقشتالة وبرشلونة وسرقسطة بالأندلس على عهد ملوك الطوائف ، فرأيناه في منطلق الواقع التاريخي لا يرتفع عن قاطع طريق مسلَّح أتيح له أن يتزعم فريقاً من المخدوعين ليعيث بهم فساداً في جنبات الأندلس ، وقد وجد من تنازع الأمراء والملوك في عصره ما مهَّد له طريق الظفر الانتهازي في أكثر جولاته ! والمؤرخون المنصفون من النصارى والمسلمين يصمونه بالغدر والعقوق والقسوة والفظاعة ، معددين فظائعه المنكرة وجرائمه المخرِّبة ، ولكن دعاة التعصب في إسبانيا يتركون لخيالهم العنان لِيُنَصِّبُوا منه عملاقاً باهر الصفات خارق البطولات ، ولو قصروا حديثهم على شجاعته الانتهازية وحدها لقيل عنهم إنهم يُنَصِّبُونَه رمزاً لآمالهم القومية ، ولكنهم يضربونه مثلاً للفروسية وهو منها بمكان الحصى من النجم ، وكأني بغلاة القساوسة وقد أكدوا هذه الخوارق الموهومة بما أضافوه من معان دينية يضحك لها طويلاً من يعلمون حقيقة أبناء وطنه ودينه أنفسهم ! ولكن ما يضحك له هؤلاء العالمون قد أصبح في عشرات القصص الإسبانية والأوروبية فصولاً ومشاهد تمثل على المسارح ، وتنشط لتصويرها دور الخيالة ، وقد صدر أخيراً في أمريكا عن هذا (السيد) فيلم سينمائي يجعله بطل النصرانية وفارس الأندلس ! وهو بالفروسية دعي لصيق ..

قلت إن غلاة القساوسة قد أكدوا هذه الخوارق الكاذبة ! وقد بدأوا حوك الأساطير عنه من يوم وفاته ، فزعمت قصصهم الدينية أنه حين نزل به الموت لم يفقد سطوة عينيه ، ولم ينضب تدفق الدماء في شرايينه وتلهبها في وجنتيه ، ولذلك أجلسه حواريوه على جواده وأمسكوا يده بعنان فرسه ، وفي يده الأخرى سيفه البتار وقد برقت عيناه بريقاً يوحي بالتحدي والكبرياء ! وكان ذلك في

بادىء الأمر كما يزعمون خديعة لأعدائه المسلمين كيلا يفرحوا بموته ، وهم يتقاتلون في معركة حربية طاحنة ، وسار المشهد التمثيلي يتقدمه الفارس الهالك حتى وصلوا به إلى دير سانت بدرو ليجلسوا البطل على كرسي من العاج محنَّط الجثة ليستمر إلى جانب المذبح عشر سنين مرتدياً ملابسه الملكية ، وأدواته الحربية !! حتى إذا تغلبت آثار الموت على وسائل التحنيط لم يجدوا مفراً من دفنه ، وهنا اتسعت الفرصة لأساطير القساوسة من جديد ، فزعموا أن يهودياً حاول أن يمس الجثة فتحركت يد السيد وقبضت على السيف الذي تمتشقه فسقط اليهودي مرتاعاً وَجِلاً ثم تنصَّـر ! كما زعموا أن تابوته قد فتح ذات مرة لبعض المآرب ففاح العطر يملأ المكان كما يهب النسيم بحديقة زهراء ، ثم هطل مطر عظيم روىٰ أرجاء قشتالة وكانت حينئذ تشكو الظمأ وتتطلب الغيث فانقذتها كرامة الكمبيادور !!

هذا بعض ما قيل عن البطل ! وكل من يسمع هذه الخوارق المدهشة يظنه قد جاهد في سبيل النصرانية عن عقيدة ثابتة حتى ضفرت له الأكاليل ! ولكن واقعه المدون ينطق بغير ما يقول ، فقد كان كثير من حماة النصرانية بعهده يقاسمونه العداء ويعدّونه خطراً مريعاً على الاندلسيين جميعاً من نصارىٰ ومسلمين ، وكان الفونسو أمير قشتالة أول من فطن إلى انتهازيته الوصولية ، فاصدر أمره بنفيه من أرضه وحرَّم على الناس إيواءه ، فظل يتسكع ويتسول حتى اتيح له أن يجد من يرعى زوجته وابنتيه في دير مهجور ، وإذ ذاك لجأ إلى معسكر العرب ليجد من المسلمين في سرقسطة من يحميه ، وكانت طبيعة السياسة في عصر ملوك الطوائف تمنع الحذر والحيطة لدى هؤلاء الملوك ، فهم متنازعون متقاتلون ، قد وقع باسهم بينهم ، فحالفوا العدو على انفسهم ، ولم يرتفعوا إلى المستوى الذي يجب أن يصعدوا إليه فيوحُدوا الكلمة أمام العدو المتربص ، لذلك رحب حكام سرقسطة بهذا الوصولي وأمدوه بالعون والسلاح وعرف حينئذ باسم « السيد » وهو اسم عربي ظل ملتصقاً به ، حيث لا يدل على حقيقة واقعه ، لأن السيد لا يكون تابعاً في بلاط ، وقد اغرته انتصاراته في بعض الوقائع بان يجمع جيشاً من المرتزقة ، يحارب به النصارىٰ طوراً ليطفىء حقده على من طردوه وشردوه ، ويحارب به المسلمين طوراً ، ليقتطع بعض المدن ، ويجمع الجزية ، ويأخذ الطعام والسلاح ! وصاحب هذا السلوك الانتهازي لا يستحق أن يوصف بالفروسية فضلاً عن ان يصل إلى مرتبة القديسين ممن تفوح روائحهم العطرة من قبورهم بعد عشرات السنين ! كيف وهو لا يقصر شره على المسلمين بل يتعداه إلى ابناء ملته انفسهم ووقائعه المخرِّبة في مقاطعات الفونسو بقشتالة ، والكونت برنجر ببرشلونة لا تشير إلى أن النصرانية كانت تسكن قلبه عن يقين فقد عاث وخرب وأفسد ، ونهب الدور وأيتم الأطفال ، وروّع أبناء دينه

ليس فارساً
بل قاطع طريق

أسوأ ترويع ، ولكن ذلك كله ينسى لدى المغرضين تكريماً رخيصاً لما أنزله بالمسلمين في بلنسية من أهوال !

فقد كانت نكبة هؤلاء الضحايا الأبرياء به مروعة ماحقة ، إذ حاصرها في غلظة وفظاعة عشرين شهراً حصار الملحف اللجوج ، وبلغ الجهد بسكانها أن أكلوا المحرم من الحيوان ، وعدموا الماء فصبروا على العطش والجوع صبر المضطر المستسلم ، حتى إذا طفح الكيل طلب ابن جحاف قائد المدينة من السيد أن يرفع الحصار لتسلم المدينة نفسها بشروط مقبولة تحفظ كرامة الساكنين ! وكان من أبرزها أن يؤمن الناس على أنفسهم وأموالهم ، وأن يتولى مندوبه تحصيل الضرائب ، وأن تحتلها حامية من النصارى المستعربين الذين يعيشون بين المسلمين ، وألا يغيِّر الكمبيادور شيئاً من شرائع المدينة وأحكامها الدينية ، فتظاهر الماكر بالقبول ، حتى إذا صار صاحب الأمر في بلنسية غدر بكل ما عاهد القوم عليه ، وطلب من ابن جحاف أن يسلمه جميع ما لديه من الأموال ، فتقدم بها ليظفر بحياته ، ولكنه كان يسير إلى نهايته حيث أحرقه الغادر فيمن أحرق ظلماً وعدواناً من أعلام بلنسية وكبار قوادها وعلمائها وأمرائها ، ولدينا نصَّان تاريخيَّان يتحدثان عن استشهاد ابن جحاف حديثاً يطفر بالدمع من العيون ، فقد قال أبو العباس بن علقمة أحد مؤرخي النكبة ومعاصريها :

« إن القنيطور ـ هكذا تسميه الرواية العربية ـ أمر بتعذيب ابن جحاف فعذب عذاباً شديداً ثم أمر به فجمع له حطب كثير ، وحفرت له حفرة وأقيم فيها وأصير الحطب حوله وأوقدت فيه النار فكان يضم النار إليه بيديه ليكون ذلك أسرع إلى خروج روحه » أ هـ .

وقال ابن بسام صاحب الذخيرة : « أخبرني من رآه في ذلك المقام ، وقد حفر له إلى رفقيه وأضرمت النار حوله وهو يضم ما بَعُدَ من الحطب بيديه ليكون أسرع إلى ذهابه ، وأقصر لمدة عذابه ، كتبها الله في صحيفة حسناته ومحا بها سالف سيئاته ، وَهَمَّ الطاغية يومئذ بتحريق زوجته وبناته فكلمه فيهن بعض طغاته فبعد لأي ما لفته عن رأيه ، وأضرم هذا المصاب أقطار الجزيرة يومئذ ناراً وجلل سائر طبقاتها حزناً وعاراً » .

وقد انطلق الجنود من أتباعه يفسدون ويعيثون ، فمن ناهب للأموال ، وغاصب للمتاجر ، ومنتهك للأعراض ومجرٍ للدماء حتى صارت بلنسية بهم شائهة خاوية ، وقد زارها ابن خفاجة بعد أن هدأت العاصفة قليلاً ، فشاهد من آثار التدمير وفظائع التخريب ما أدمى فؤاده وأجرى على لسانه هذه الأبيات :

عَاثَتْ بِسَاحَتِكِ العِدَى يَادَارُ ... وَمَحَا مَحَاسِنَكِ البِلَى وَالنَّارُ
فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي جَنَابِكِ خَاطِرٌ ... طَالَ اعْتِبَارٌ فِيكِ وَاسْتِعْبَارُ
أَرْضٌ تَقَاذَفَتِ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا ... وَتَمَخَّضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْدَارُ
كَتَبَتْ يَدُ الحَدَثَانِ فِي عَرَصَاتِهَا ... (لا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ)

ولكنَّ عين السماء لا تغفل ، فقد سلط الله على هذا الغادر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بالمغرب إذ وفد سمعه ما أنزله الطاغية ببلنسية فخف إلى استردادها بجيش ظافر ، وقد ارتاع « الكمبيادور » لمقدمه ارتياعاً أفقده الباس فسقط مريضاً على فراشه ، وتولى ابنه الوحيد (دون ديجو) قيادة جيشه فلقي حتفه في معركة فاصلة ! وجاءت الأنباء إلى المريض المكبل إلى سريره فمات غماً لفقد وحيده وضياع انتصاراته ، ثم تسلل أتباعه بجثته تحت أستار الظلام في مشهد تمثيلي ! وبقي الصراع دائراً حول المدينة حتى تطهرت من الغاصبين بجهاد المرابطين .

■ لكم شهد التاريخ من العتاة ، ذوي الغدر والعقوق والقسوة والفظاعة ، ومع ذلك تظهرهم الأفلام السينمائية في الغرب ، على أنهم فرسان صناديد ، لأنهم قاتلوا المسلمين ، وخرَّبوا المدن ، وخانوا العهود ، وارتكبوا الجرائم ...

هذا هو الفارس الذي تتغنى باسمه الملاحم الإسبانية ، وتصور بطولته الأفلام السينمائية ، وتشيد بإخلاصه الأساطير الكنسية !

فاي سمات الفروسية الأصيلة تقرب من سمات هذا الانتهازي الغادر الكذوب !

إن كانت البطولة الجسمية وحدها مدعاة تمجيده ! فإن الفروسية بمناى عن البطولة التي تقوم على الغدر والانتهاز وإهدار المعاهدات والتنكر لمبادىء الكرامة والوفاء ، ولنا بَعْدُ أن نعتبر الحيوان المتوحش فارساً لأنه يصرع الأبطال وقد تجرد من سمات الإنسان !

وإن كان الانتصار للنصرانية موضع تخليده ! فقد ظهر بوضوح أن أمراء النصرانية قد قاسوا منه مقاساة من لا يدافع عن عقيدة أو يعتز بدين !

ففيم هذه الملاحم ! وعلام تصور الأفلام ! متحدثة عن الفروسية والفرسان !! إذا كانت الفروسية مجهولة السمات ، حتى جاز إطلاقها على كل غادر سفَّاح ، فإننا نشير إليها هنا بما نضرب من امثال ! امثال واقعية سجلتها الصحائف المعتمدة ، ولم تكن تلفيق شاعر أو تخيل قصاص !

كان علي بن أبي طالب فارساً أصيلاً ، إذ أن اعداءه في حرب صفين ، قد احتلوا مواقع الماء ومنعوا جيشه الشراب ، والقيظ لافح ، والساعة دقيقة ، فلم يجد بداً من قيادة كتيبة مستبسلة تحتل الآبار دون هوادة ، وتم له النصر فانتزع الماء من مغتصبيه ، وأباحه أصحابه ، فقال جماعة من مستشاريه ، لا بد أن نمنع الماء هؤلاء الذين حرمونا منه ، وقد سيطرنا عليه ، فجزاء سيئة سيئة مثلها ، ولكن نخوة الفارس الهاشمي المسلم صاحت بهم في عزة ، لا يا قوم ، الماء ماء الله ولن يتحكم فيه إنسان ذو خلق ودين ! وبهتت جيوش الشام حين رات الفارس الشجاع يصيح بهم تقدموا تقدموا ، فالماء للجميع !

وكان البطل الأندلسي عبد الرحمن الثالث فارساً أصيلاً وقد قاد معارك دامية مع أمير « ليون » (سناس) ولقي من حربه ما شرد نومه ، واطار أمنه ، ثم جاءه رسوله في إحدى فترات الهدنة المؤقتة ، يرجوه أن يسمح له بزيارة قرطبة ليستشير من بها من أطباء العرب في مرضه الصدري ، فتسمع عبد الرحمن رجاء غريمه في بشاشة وترحيب ، وأجاب رجاءه ملاطفاً ، ثم خف لاستقباله وفد ، وغمر حاشيته بالهدايا ، فقال مستشاروه عاتبين إنه يستشفي لدينا في قرطبة ليشن الحرب علينا إذا انس في جسمه القوة ! ولكن عبد الرحمن يصيح بهم ، دعوه يصح فنحن لا ننازل إلا القوي الصحيح ! أليس ذلك منطق الفارس الاصيل .

أما المنصور بن أبي عامر فقد أسرَ ذات مرة كتيبة إسبانية ذات خطر جليل ، فطلب إلى رجالها ان يلقوا أسلحتهم ، فآثروا الموت على إلقاء السلاح ، وأشار عليه أصحابه أن يجهز عليهم فيريح البلاد من فسادهم الثائر ، ولكن الفارس المسلم راى استئصالهم بعد الأسر ينقص معنى الفروسية في نفسه ، فأطلق سراحهم ، وصاح بهم انتم ابطال ، ولا بد ان نتقابل حين تتكافا القوى فسيروا آمنين .

وقد قام صلاح الدين الأيوبي بمثل ما قام به عبد الرحمن الثالث حين أنهى بعض المعارك الحامية ، إذ بلغه مرض قائدها الصليبي ريتشارد المعروف بقلب الأسد ، ثم أرسل يستفسر عن صحته ، فعلم أنه محموم يهذي وان حاجته ماسة إلى الماء المثلج والفاكهة ، فاسرع بإمداده بالكمثرى والتفاح والماء المثلج ، يحمل ذلك إليه يومياً كأنه صديق ! فاي شيء تكون الفروسية إن لم تكن إحدى سمات صلاح الدين .

ومن روائع الفروسية الإسلامية في ميدان الحروب الصليبية ما قام به الملك النبيل العادل نور الدين زنكي ذو الأرج الفواح في رياض الشهامة والفتوة والنبل ، وأستاذ صلاح الدين وقائده وهاديه ، فقد بلغه ذات يوم وفاة غريمه (بودوا) واشير عليه ان يستغل الموقف في مهاجمة مدينة عسقلان .. ولكن نخوة الفروسية الإسلامية الهمت لسانه ان يقول في نبل « إنه عمل غير إنساني أن نزعج قوماً محزونين على أميرهم ، ولن يشرف مجدي الحربي ان انتصر على قوم يشيعون جنازة راحل عزيز ! »

هذه أمثلة في مجال الفروسية النبيلة لها نظائرها الكثيرة في صفحات التاريخ العربي ، وملاحم المعارك الإسلامية ، فإذا الزمنا الإنصاف العلمي أن نتجرد من عواطفنا الذاتية ، وان نسال سؤالاً موضوعياً يستند إلى الواقع الصادق فنقول :

إذا كان أمثال علي بن ابي طالب وعبد الرحمن الثالث ونور الدين محمود والمنصور بن أبي عامر ، وصلاح الدين الأيوبي أبطالاً يتسمون بالفروسية النبيلة فاين يكون موضع الوصولي الانتهازي المعروف بالسيد الكمبيادور ؟

إذا سألنا هذا السؤال الصريح فإن جوابه الصادق أن الفارس الإسباني المزعوم لا يزيد عن سفَّاح يقطع الطريق ! وأن الذين يتخذونه مثلاً للفروسية في أوروبا وأمريكا مغرضون او مخدوعون ، وان الجثة التي تفوح بالعطر في افلام السينما وأساطير الإسبان لن ترشح بغير الصديد !